



العلوم الاجتماعية الغربية ومناهج دراسة القارة الإفريقية

د. آدم بمبا

جامعة إفريقيا الإسلامية - أبيدجان

تُعرف العلوم الاجتماعية بأنها فرعٌ من المعرفة يهتم بالدراسة العلمية للمجتمع البشري، وبجوانب الحياة الجماعية، والعلاقات المتنوعة بين الناس^(١)، أو يمكن أن تُعرّف باختصار بأنها الدراسة العلمية للمجتمع. ويدخل تحت هذا الحقل العلمي مجموعةٌ واسعةٌ متداخلة من أفرع العلوم، كالأنثروبولوجيا، وعلم الآثار، والدراسات الدولية، وعلم اللغويات، وعلم السكان، والعلوم السياسية، والجغرافيا، ودراسات الاتصال، وعلم النفس، والديموغرافيا، والتاريخ... وغير ذلك من التخصصات الكثيرة، ولا تزال مجالاتٌ حديثة تُدرج في هذا العلم، مثل: دراسات التنمية، ودراسات المرأة والنوع الاجتماعي، والدراسات الإقليمية^(٢).

(١) UNESCO. (1999). World Social Science Report. Elsevier, p.11

(٢) Ibid.

وتجنباً للدخول في تفاصيل تلك المراحل، يمكن الاكتفاء بالقول إن النشأة المؤسسية الحديثة للعلوم الاجتماعية قد ارتبطت بشكل مباشر بالمشروع الاستعماري الذي استخدم الأنثروبولوجيا والبحث الاجتماعي أدوات لفهم «الآخر»، والسيطرة على الشعوب.

ومع مطلع القرن العشرين، أُدرجت الدراسات الإفريقية في الجامعات والمعاهد الغربية، وظهرت مجلات أكاديمية رائدة على امتداد القرن، كما ظهرت سلاسل كتب كثيرة متخصصة في مجال من مجالات الدراسات الإفريقية.

ومن المجلات الشهيرة:

١- مجلة الشؤون الإفريقية African Affairs، ١٩٠١م، الجمعية الملكية الإفريقية، جامعة أكسفورد.

٢- مجلة إفريقيا AFRICA، ١٩٢٨م، المعهد الإفريقي الدولي IAI، جامعة كامبريدج، المملكة المتحدة.

٣- مجلة الدراسات الإفريقية African Studies Review، ١٩٥٨م، جمعية الدراسات الإفريقية، جامعة كامبريدج.

٤- مجلة الدراسات الإفريقية Cahiers d'Etudes Africaines، ١٩٦٠م، دار النشر EHESS باريس.

٥- مجلة الدراسات الإفريقية المعاصرة Journal of Modern African Studies، ١٩٦٣م، جامعة كامبريدج، المملكة المتحدة.

٦- مجلة مجال إفريقيا Africa Spectrum، ١٩٦٦م، هامبورغ، ألمانيا.

٧- مجلة أفريكانوس Africanus، ١٩٧١م، جامعة UNISA بريتوريا، جنوب إفريقيا.

أما حديثاً، فإن رصد حجم النشر حول الدراسات الإفريقية يكاد يستعصي على الحصر، وقد أشار مركز aegis للدراسات الإفريقية

تجدر الإشارة إلى أن تعريف العلوم الاجتماعية وضبط حدودها لا يخلو عن أخذٍ وردٍّ وإشكالات. مثلاً، يتحفظ بعض الدارسين على مصطلح «علوم اجتماعية»؛ بحجة أنها لا تحمل صرامة العلوم، وأن التسمية خاطئة^(١). أيضاً، يشكك بعضهم فيما يُذكر من فواصل بينها وبين «العلوم الإنسانية». ولعل ترجمة تلك الإشكالات تظهر في اختلاف الدول والجامعات في فرز العلوم التي يمكن أن تنضوي تحت العلوم الاجتماعية، ففي بعض الجامعات لا يُدرج التاريخ واللسانيات ضمن العلوم الاجتماعية، وإنما في الإنسانيات أو الآداب. وتُدرج الجغرافيا تحت العلوم الطبيعية أو فيها جميعاً^(٢).

في هذا السياق، ظهرت الدراسات الاجتماعية بإفريقيا متشعبة، متعددة الأبعاد، حاملةً للكثير من الإشكالات. وإذا كان من الإمكان إرجاع أصول الدراسات الاجتماعية (المكتوبة) إلى المؤلفات التاريخية والفقهية القديمة التي وضعها علماء إفريقيا منذ بدء التأليف في القرن الثالث عشر الميلادي، فإن الباحثين يؤرخون ل بدايات تلك الدراسات بالفترات الأولى من الهجمة الاستعمارية على القارة.

ويرصد العلماء- عادةً- تطور الدراسات الاجتماعية بإفريقيا عبر خمس مراحل أساسية، هي: (أ) مرحلة التوسع الأوروبي والكشوف الجغرافية، (ب) المرحلة الاستعمارية، (ج) مرحلة نظريات التحديث، (د) مرحلة النقد الراديكالي، (هـ) مرحلة ما بعد الحداثة وتفكيك الاستعمار^(٣).

(١) S. Agyei-Mensah et al. (eds.), Changing Perspectives on the Social Sciences in Ghana, NY, London: Springer, p.1

(٢) Ibid, p.4

(٣) C W Gutkind, & Peter W. (1977). African Social Studies: A Radical Reader. Pearson Education, p.20

التي تواجه المعرفة الاجتماعية في إفريقيا، مع استكشاف إستراتيجيات تفكيك التبعية الأكاديمية وبناء إبستمولوجيا إفريقية أصيلة.

وذلك من خلال الإجابة عن سؤال رئيس: كيف أسهمت العلوم الاجتماعية الغربية في تشكيل الدراسات الإفريقية داخل سياق استعماري وهيمني، وما السبل الممكنة لتفكيك التبعية المعرفية وبناء علوم اجتماعية إفريقية مستقلة؟

عليه؛ فإن الورقة الحالية محاولة لرصد الدراسات الاجتماعية الغربية حول إفريقيا، ومناقشة جملة من القضايا والأسئلة المطروحة في هذا المجال، وذلك من خلال المحاور الآتية: المحور الأول: إفريقيا في الدراسات الاجتماعية الغربية.

المحور الثاني: وضع الدراسات الاجتماعية في الجامعات الإفريقية وتحدياتها. المحور الثالث: معوقات العلوم الاجتماعية الإفريقية.

المحور الرابع: الدراسات الإفريقية وإنهاء الاستعمار.

ويمكن تناولها كما يلي:

المحور الأول: إفريقيا في الدراسات الاجتماعية الغربية:

للعلوم الاجتماعية مكانة مركزية في المشروع الاستعماري الأوروبي؛ لقيام هذا المشروع على دعامتين أساسيتين، هما: التكنولوجيا، والعلوم الإنسانية، وكانت الأخيرة خاصةً أمضى وأطول تأثيراً في القارة^(١). لذلك؛ فإن بداية نشاط البحث والنشر المؤسسي في العلوم الاجتماعية المتعلقة بإفريقيا ترتبط بمرحلة التوسع الأوروبي والكشوف

المتعددة التخصصات في أوروبا إلى أن عدد المجالات الأكاديمية في هذا المجال يفوق المئات^(٢). وأحصينا في موقع JSTOR الشهير ٨٧ عنواناً من المجلات الدولية المتخصصة في الدراسات الإفريقية^(٣). كما أن إدخال كلمة «إفريقيا» في البحث، في مواقع بعض المكتبات الإلكترونية، يعطينا بضعاً من آلاف عناوين الكتب المنشورة حول إفريقيا.

بالإضافة إلى ذلك، ظهر الاهتمام الغربي بالدراسات الاجتماعية الإفريقية في إنشاء الكثير من المعاهد والمراكز البحثية، وأقسام الدراسات الإفريقية بالجامعات، ومن أشهرها: مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية SOAS في لندن، تأسست عام (١٩١٦م)، وغيرها من المعاهد التي سبقت الإشارة إليها آنفاً في قائمة المجلات. وقد شهدت الدراسات الإفريقية تطوراً ملحوظاً من حيث عدد المراكز والمعاهد بعد الحرب العالمية الثانية، ومن أشهر المراكز: مركز الدراسات الإفريقية في ليدن بهولندا، عام (١٩٤٧م)، وجامعة ميلفيل (١٩٤٨م)، بأمريكا بجامعة نورث وسترن.

هذا، وقد بلغ الاهتمام الغربي بالدراسات الإفريقية أوجه في عقد الستينيات، وفيها أنشئت مجلة التاريخ الإفريقي The Journal of African History، ومجلة الدراسات الإفريقية Cahiers d'Etudes Africaines، وسُمي عام (١٩٦٠م) بـ«عام إفريقيا» Year of Africa.

وتهدف الدراسة إلى تحليل أثر الهيمنة الغربية والاستعمار المعرفي في تشكّل العلوم الاجتماعية والدراسات الإفريقية، وبيان التحديات البنوية

(٢) Alois S. Mlambo, Western Social Sciences and Africa: The Domination and Marginalisation of a Continent, African Sociological Review, 10 (1), 2006, pp.161-179.

(١) <http://www.aegis-eu.org/african-studies-journals>, visited on: Feb 27, 2026.

(٣) <http://www.jstor.org/action/showAdvancedSearch>, visited on: Feb 27, 2026.

الجغرافية الكبرى.

أيضاً في العلوم الاجتماعية^(٢).

ويمكن تحديد بعض ملامح الدراسات الاجتماعية الغربية حول إفريقيا في الآتي:

١- التصوير الدوني لإفريقيا:

يشير الباحثون إلى وجود نصوص مؤسّسة في الدراسات الاجتماعية الغربية، ومنهجيات بحثية، وضعت اللبنة الأساسية لتصوير إفريقيا بأنها «آخر، أدنى» Other & Inferior، من أوروبا، ويطلقون على تلك النصوص «مكتبة استعمارية» أو «أرشيف كولونيالي»^(٣) Colonial Library، بتعبير الملك وكامولا. وقد كان ظهور المكتبة الاستعمارية في الدراسات الاجتماعية نتيجةً طبيعية لطغيان منطق الخطية The Logic of Linearity، الذي يعود لعصر التنوير، وبموجبه صُنّفت المجتمعات الغربية بوصفها «حديثّة وعقلانية»، وما عداها (الإفريقية بالذات) بما يقابل ذلك من دونية وبدائية وتخلف. وقد تجسد هذا المنطق في الدراسات الاجتماعية فيما يُعرف بـ«اختراع إفريقيا»^(٤) Invention of Africa؛ بحيث صُوّرت إفريقيا صنواً للتخلف، وأنها بحاجة إلى «مخلصين». في ظل هذا المنطق، نشأت الدراسات الاجتماعية ونمت، وغدت النزعة المركزية الأوروبية المفرطة التي ترى العالم من منظور أوروبي ضيق، وتحكم على جميع الثقافات والظواهر الاجتماعية بالقبول والرد؛ بمدى قربها أو بعدها عن هذا المنظار. وقد مثل كثير من رواد الفكر الأوروبي هذا المنطق، وصرحوا به في حكمهم حول إفريقيا. من أولئك: الفيلسوف الألماني هيغل

هذا، ومنذ بدايات نشاط البحث الاجتماعي حول إفريقيا حتى الآن، فإن هذا الحقل قد عانى قدراً عالياً من الانحياز، وإن بشكل متفاوت بين عصوره، وقد كان ذلك طبيعياً؛ لأن أصل هذا النشاط والهدف منه تطويع العلوم الاجتماعية لتكون أداة من أدوات السيطرة والتحكم في الشعوب المستعمرة؛ إذ عبر تلك العلوم أعطت أوروبا نفسها تبريراً للإمبريالية؛ بإقصاء الأنماط المعرفية والثقافية للمستعمرين، وجعل الثقافة الغربية في قمة الحضارة، وأوروبا وصياً وصاحب حق في فرض معايير ومؤسساته الخاصة على الشعوب غير الغربية، والسعي الحثيث للترويج لها وتمجيدها، وإطلاق مسميات وشعارات براقة عليها، مثل: المهمة التمدنية Mission Civilisatrice، وعبء الرجل الأبيض^(٥) White man's burden.

بتعبير آخر، فإن الدراسات الاجتماعية في الغرب قد اصطبغت بقدر عالٍ من الرؤية المركزية الأوروبية Eurocentrism، إلى كل «آخر» ليس أوروبياً غربياً، وذلك بإسقاط القيم الغربية على العالم، وجعلها معياراً للمجتمعات والثقافات غير الأوروبية.

وكما صرح به الباحث أجاني، فإن النزعة المركزية الأوروبية قد أثرت في الباحثين الاجتماعيين قاطبةً ممن نشؤوا في بيئة تغلب عليها الهيمنة الأوروبية، حتى من لدن الناقدين الاجتماعيين الأكثر راديكالية. لذلك، لا يزال باحثون يشككون في وجود حقيقي لما يُسمّى علم اجتماع دولي، ويحتجون بأن الموجود إنما هو نزعة محلية أوروبية أمريكية؛ بحيث يُنظر إلى القوى العظمى اقتصادياً وعسكرياً بوصفها «قوى عظمى»

Ajani, O. A. Sociology of Knowledge and the Era of Academic Dependency in Africa: Issues and Prospects. p.43 (٢)

Mudimbe, V. Y. (1988). The invention of Africa: Gnosis, philosophy, and the order of knowledge. Indiana University Press (٣)

Mudimbe, Op. Cit., p.4 (٤)

.Ibid., p.163 (٥)

لدى الشعوب الأصلية عن المجال الصحي، على الرغم من تفوق الطب الشعبي على الطب الحديث في بعض الميادين والمناسبات^(٣)، انظر دراستنا «الطب التقليدي الإثني بإفريقيا»^(٤).

٣- تجانس إفريقيا:

يراد بتجانس إفريقيا Homogenization of Africa أنه على الرغم من تنوع الثقافات الإفريقية وتعدد لغات القارة وعاداتها وتقاليدها؛ فإن الأدبيات الاجتماعية الغربية قد عمدت إلى وضع جميع التمايزات الثقافية في بوتقة واحدة^(٥). وقد أدى ذلك إلى القفز في تقرير النتائج وتعميم بعض الصور النمطية على جميع شعوب القارة، وتجاهل كثير من الإنجازات الحضارية في بعض المجتمعات الإفريقية.

يضاف إلى ذلك تركيز الباحثين الغربيين دراساتهم على بعض المجتمعات أكثر من غيرها دون مبررات واضحة. ففي تحليل لمجموع (٦٦) دراسة منشورة، وجد الباحث بأسيدو أن نسبة (٨٥٪) منها هي دراسات حالة لدولة واحدة، وأن (٦، ٧٪) فحسب قد عُتيت بفحص صورة أوسع للقضية المدروسة. بينما عُتيت الغالبية العظمى بالمستوى المجهرى^(٦). إن أقل ما يمكن قوله عن هذا المنهج أنه يُنتج صورة مشوهة غير متوازنة

Georg Hegel, d ١٨٢١، والمؤرخ البريطاني توينبي d Arnold Toynbee, ١٩٧٥، وفي وقت متأخر عام (١٩٦٣م)، كان أحد أبرز الرموز الفكرية في أكسفورد، البروفيسور تريفور روبر Trevor Roper, d ٢٠٠٢، يزعم أن إفريقيا ليس لها تاريخ قبل وصول الرجل الأبيض^(٧).

٢- إبادة إبستمولوجية لإفريقيا:

يشار بالإبادة الإبستمولوجية Epistemicide إلى الإجراءات الممنهجة التي اتبعتها كثير من الدراسات الاجتماعية الغربية لتغيب نظم المعرفة الأصلية لدى الشعوب غير الغربية، بتقاليدها الشفهية ولغاتها المحلية وسائر معارفها الشعبية، وسمّاها الباحث Reiland Rabaka «تمييز عرقي معرفي»^(٨) Apartheid Epistemology. وتتمثل في النزوع إلى تصنيف المعارف إلى فئات، وتحديد ما يستحق منها الاعتراف به بوصفه جزءاً من البناء المعرفي. أما ما عداها، فيُدفع به إلى الإهمال والخطر كما هو الحال في نظام الفصل العنصري. ويستخدم آخرون «عنصرية أكاديمية»، وهي توظيف الدراسات الاجتماعية في دعم هيمنة الرجل الأبيض وتفوقه.

تلك هي المقاربة التي اتبعتها الدراسات الاجتماعية تجاه إفريقيا بالذات، فلا اعتراف بمعارفها في المدارس والجامعات، أو في المحاكم أو البرلمانات، فكل ذلك قد صُوّر للأجيال الإفريقية على أنها لا وزن لها في البناء المعرفي والتكوين الثقافي، وأنها غير علمية Unscientific. ولعل أجلى مثال لهذا النظام هو إبعاد المعارف الطبية

(٢) Ngambouk V. P. & Tabi Tabenyang. (2020). Biomedical Hegemony and Democracy in South Africa. Brill. p.47

(٤) مجلة قراءات إفريقية، (العدد ٤٨)، أبريل ٢٠٢١م - شعبان ١٤٤٢هـ، ص ٧٨.

(٥) G. Harrison. (2002). Issues in the Contemporary Politics of Sub-Saharan Africa, UK: Palgrave Macmillan, p.14

(٦) Basedau, Mathias. "Rethinking African Studies: Four Challenges and the Case for Comparative African Studies." Africa Spectrum 55 (2): (2020), 194-206

(١) Adebayo O. & T. Falola. (2003). The Foundations of Nigeria. Africa World Press, p.63

(٢) Spivak, G. C. "Can the subaltern speak?" In C. Nelson & L. Grossberg (Eds.), Marxism and the Interpretation of Culture (pp. 271-313). University of Illinois Press, (1988). p.271

عن القارة، وتلك صورةٌ يحرص الغرب، كل الحرص، على الترويج لها وتأكيدِها .

٤- إسقاط أوروبا على إفريقيا:

بما أن العلماء الاجتماعيين قد استخدموا في الدراسات الإفريقية مناهج نشأت وتطورت في سياق دراسة الظواهر الاجتماعية الغربية، فقد نتج عن تطبيق تلك المناهج على إفريقيا نتائج هي في ظاهرها صحيحة؛ لكنها عند سبرها يبدو زيفها وتكشف المغالطات التي تحتويها، فهناك مفاهيم كثيرة، مثل: الفرد، والجماعة، والطبقة، والدولة والمجتمع المدني، والأمن، والحرية وغيرها ... تتم دراستها في السياق الإفريقي بصورها وقوالبها الغربية المعهودة، وهي لا تنطبق على المجتمعات الإفريقية بتلك القوالب الموجودة في الغرب. بل إن بعض تلك المفاهيم لا وجود لها في الثقافة الإفريقية^(١).

إن هذا الإجراء الإسقاطي سمّاه الفيلسوف البولندي Czeslaw Milosz «بتلازمة العقل الأسير»^(٢) Captive Mind Syndrome. ويتمثل في تطبيق طرق البحث الغربية في العلوم الاجتماعية على «العالم الثالث»، دون تكييف حقيقي لتلك الطرق المستوردة^(٣). ويطلق عليها المفكران: سيد العطاس، وفؤاد، «إمبريالية أكاديمية» Academic Imperialism، تماماً كما هو الحال في الإمبريالية الاقتصادية والسياسية^(٤). وبموجبها يفرض الغرب نظمه

(١) Alois S. Mlambo, Op. Cit., p.169.

(٢) Meyers, W. R. (2016). Social Science Methods for Psychodynamic Inquiry, UK: Palgrave Macmillan, p.8.

(٣) Ajani, Op. Cit., p.42.

(٤) Fouad, T. M., 'Academic dependency', Medicine Anthropology Theory, Vol.5, No.2 (2018), Alatas, S. F., 'Academic dependency and the

الاقتصادية والسياسية على المجتمعات الأخرى، دون اعتبارٍ لما بتلك المجتمعات من خصوصيات وخبرات أصيلة.

من هذا المحور، نخلص إلى أن نشأة العلوم الاجتماعية الحديثة بإفريقيا قد ارتبطت بالمشروع الاستعماري بوصفه أداة لفهم «الآخر» والسيطرة عليه. ومن هذا المنطلق؛ صاغت «المكتبة الاستعمارية» صورةً دونية للقارة وفق منطق المركزية الأوروبية. هذا السياق هو الذي شكّل النواة البنيوية للجامعات الإفريقية التي تعاني من تبعية واضحة للمشروع الاستعماري.

المحور الثاني: وضع الدراسات الاجتماعية في الجامعات الإفريقية وتحدياتها؛

لقد سبقت الإشارة إلى أن الدراسات الاجتماعية الأولى بإفريقيا قامت من أجل فهم المجتمعات الإفريقية، وهو فهمٌ كان لا بد منه لتحقيق الهيمنة وتأمين المصالح الاستعمارية؛ لذلك وُكّلت مهمة تلك الدراسات إلى الرحالة والإثنوغرافيين الأوائل، ووُضعت المعاهد والمدارس من أجل تحقيق هذا الهدف.

بعد تلك المرحلة، فترة ظهور الدول القطرية الإفريقية، شهدت الدراسات الاجتماعية نقلة نوعية في مقارباتها الإيستمولوجية، خاصة في المرحلة الرابعة المشار إليها في أول هذه الورقة، أي مرحلة النقد الراديكالي، من الستينيات إلى السبعينيات، وفيها ظهرت نظريات التبعية التي أبانت أن إخفاق الدول الإفريقية الحديثة هو نتاج علاقتها غير المتكافئة مع النظام الرأسمالي العالمي المفروض عليها، وفيها شاعت دراسات الاقتصاد السياسي،

global division of labour in the social sciences', Current Sociology, Vol.51, No.6, (2003), pp. 599-613.

الغربية في الأهداف والمنهج والمحتوى ووسائل التعليم وطرق التقويم. إنها بتعبير آخر: نسخ «للأرشيف الغربي» في تكريس الدونية، وتهميش إفريقيا، وتأکید كولونيالية المعرفة حتى في عصر ما بعد الكولونيالية، فوجود الجامعة على التراب الإفريقي لا يكسبها الصبغة الإفريقية، وإنما ينبغي أن تكون متجذرة في «الأرشيف الإفريقي»، ناهلةً من معين المعرفة الإفريقية دون تكرر أو إقصاء للمعارف الإنسانية الأخرى.

هذا، وتأتي المشكلة اللغوية على رأس الجبل الجليدي لإشكالات التعليم والدراسات الإفريقية. وبتعبير الباحث Nyamnjoh، فإن الجامعات الإفريقية لم تُكَيَّف أو تُؤَقِّم منذ الاستقلال، وإنما ظلت حبيسة الأنموذج الأوروبي الأمريكي في إقصائها للغات المحلية، وفي رؤيتها للعالم. إنها تعيش على مناهج كولونيالية منتهية الصلاحية^(٢). وهنا يدعو الباحثون إلى «أفرقة المناهج»، أو بالأحرى «أفرقة الجامعة»، وذلك بإحداث تغيير جذري شامل في لغة التعليم، وفي المناهج، وطرق التعليم والتقويم.

أما الإشكالات والتداعيات الناتجة عن اعتماد اللغات الاستعمارية وسائط أساسية للتدريس وفي البحوث، ولغةً لرسميات الدول الإفريقية، فمنها:

١- تعزيز «الاستعمار الذهني» للمستعمر:

حيث نجح في تغريب الدارسين عن تراثهم الثقافي وعن واقعهم المحلي، وفي إحداث شرخ يصعب رتقه، بحيث يرى اللغة الأجنبية وثقافتها أعلى من لغته المحلية.

٢- تكريس «تراتب لغوي» Language Hierarchy:

والدراسات المتعددة التخصصات. وهي الفترة التي مثلت «العصر الذهبي» للعلوم الاجتماعية بالجامعات الإفريقية، وذلك إثر استقلال الدول، وتصاعد الحس القومي، ونجاح حركات التحرر والاستقلال. كما ظهرت قبل تلك الحقبة وأثناءها جامعات ومؤسسات تعليمية بإفريقيا بجهود ملموسة في تأصيل العلوم الإفريقية، مثل: جامعة ماكيري (١٩٢٢م)، ومعهد التاريخ بجامعة إبادان وجامعة أحمدو بلو بنيجيريا (١٩٤٨م)، ومدرسة إبادان للتاريخ (١٩٥٥م)، وجامعة دار السلام (١٩٦١م)، وغيرها من المدارس الفكرية المؤثرة التي تحدثت السرديات الاستعمارية حول إفريقيا، واستخدمت المصادر الشفهية لإعادة بناء التاريخ والواقع الإفريقي؛ وذلك على أيدي باحثين مشهورين في التاريخ والأنثروبولوجيا، أمثال: Ade Ajayi, Kenneth Dike, Bala Usman, Walter Roudney، وقد حقق أولئك وأمثالهم بعض النجاح في ضرورة النظر إلى إفريقيا بوصفها منتجة ومشاركة في البناء المعرفي، لا مستهلكة له. لكن لظروف كثيرة، أهمها إخفاق التجربة السياسية الإفريقية، فإن تلك المؤسسات الأولى سرعان ما تردت إلى الوقوع في المسار الاستعماري المخطط للدراسات الاجتماعية^(١)؛ إذ غدت نموذجاً للمؤسسات الغربية الاستعمارية في لغتها، وفي مناهجها، وفي تبني نظمها المعرفية التي صيغت - ابتداءً - من أجل هيمنة الغرب على إفريقيا خاصة.

من هنا: يعترض الباحث يامجو على مصطلح «جامعات إفريقية»، ويرى أن «جامعات في إفريقيا» Universities in Africa أدق في وصف تلك الجامعات التي تُجسّد إلى حدٍّ كبير الجامعات

(٢) Francis B. Nyamnjoh, "Decolonizing the University in Africa," in Oxford Research Encyclopedia of Politics, Oxford University Press, (2019), p.3.

(١) Ajani, "Sociology of Knowledge", Op. Cit., p.42.

إن اعتماد اللغات الاستعمارية قد أدى بشكل مباشر إلى تهميش الإنتاج العلمي باللغات الإفريقية بما فيها العربية، وهو ليس مجرد إقصاء لغوي، وإنما فكري؛ إذ اللغة كما يوضحه نفوجي «تحمّل طابعاً مزدوجاً: إنها وسيلة للتواصل، وحاملة لثقافة ولرؤية العالم»^(١). عليه؛ فإن إقصاء اللغات المحلية يعني تغييب ما تحملها من طرقٍ بديلة في التفكير والتحليل.

٣- تجزيء العلوم:

وهو تبني الفصل الصارم بين التخصصات من علم اجتماع، وسياسة، واقتصاد، وغيرها. ومن ثم؛ تفضيل بعض تلك التخصصات على الأخرى في دراسة المجتمع، ولا شك أن ذلك يُفضي إلى الفشل في إدراك التشابك والترابط النشط بين الظواهر الاجتماعية، ويتنافى مع الرؤية الإفريقية الشمولية للكون والحياة، ويُجَمِّم الفهم الموسع لطريقة سير المجتمع وطبيعته.

٤- تبني المعايير الغربية في التقييم:

من ملامح تبعية الجامعات الإفريقية لنظيراتها الغربية تبنيها المعايير الغربية بحذافيرها في تقييم الطلبة والأكاديميين في الترقّيات والمكافآت، وهو تقييم أصبح يقوم برمته على النشر في المجلات التي توصف بـ«دولية»؛ لمجرد وقوع مقرها في الغرب، فالعبرة في التقييم والترقية بالنشر الخارجي؛ دون اعتبار لمدى ارتباط البحث المنشور بالمجتمع المحلي وبشؤون القارة الحقيقية. وفي الوقت نفسه يُنظر نظرةً دوليةً إلى المجلات الإفريقية التي تنتجها تلك المؤسسات نفسها^(٢)، ويطلق عليها مجلات «متدنية التأثير».

Low Impact Factors.

ومن الطريف أن بعض البحوث المنشورة في تلك المجلات التي لا تحظى باهتمام، حين يعاد نشرها في مجلاتٍ غربية، أو تظهر ملخصاتها في فهارس معينة، تحوز قبولاً واستحساناً واسعاً^(٣).

بهذا الصدد، نبّه الباحث أجاني على أن ما يُعرّف بمقاييس مُعامل التأثير العالي High Impact Factor، وتبنيها بالجامعات الإفريقية، قد ساهم في إنشاء حالة من النزيف العلمي؛ حيث يحرص الباحثون الأفارقة على نشر أفضل بحوثهم حول القارة في مجلات غربية، ولا شك أن ذلك يؤدي مباشرةً إلى إضعاف المجلات الإفريقية وتهميشها. كما نبّه على أن النشر في المجلات العلمية الغربية يُمثّل وجهاً من التبعية الأكاديمية؛ لأنه يخدم ما تسعى المؤسسات الغربية لتكريسه بوضع معايير من مُعامل التأثير العالي مفصلة على قدّ الغرب وحده^(٤).

بالإضافة إلى ذلك، فإن مصداقية الباحث الإفريقي وموثوقيته تغدو محل نظر، وتفسير ذلك أنه باعتماده على المجلات الغربية للنشر والظهور - غالباً ما - يتنازل عن قناعاته في حال الخلافات المنهجية والفكرية مع هيئة التحرير بتلك المجلات.

بالإجمال، فإن الجامعات الإفريقية قد تحولت إلى مؤسسات مغترية تركز التبعية الأكاديمية للغرب، وذلك باعتمادها لغات المستعمر، وقد أدى ذلك إلى استعمار ذهني، وعزل الباحثين عن واقعهم المحلي، وإحداث تجزيءٍ للعلوم، وكل ذلك مهد الطريق لبروز معوقات كثيرة في العلوم الاجتماعية بإفريقيا.

(٢) Mahmood Mamdani, 'The importance of research in a university' (MISR Working Paper, No. 3, 2011), p.6

(٤) Ajani, Sociology of Knowledge, Op. Cit. p.44

(١) Ngũgĩ wa Thiong'o. (1986). Decolonizing the Mind, London: James Currey, p.16

(٢) Alois, Western Social Sciences, Op. Cit., 167

المحور الثالث: معوقات العلوم الاجتماعية الإفريقية:

كذلك، في تحليل آخر لمحتوى المجلة

الأمريكية للعلوم السياسية AJPS، خلال عشر سنوات، وجد الباحث جورج ميلر، أن المجلة قد نشرت (٥٧٩) بحثاً، ولم يوجد بينها أي بحث من جامعة إفريقية. اللهم إلا (١١) بحثاً من باحثين أفارقة بجامعة غربية^(٣). أيضاً، وجد الباحث Constantine Manda أن (١٧٪) فحسب من المقالات والكتب المتعلقة بالسياسة الإفريقية هي مكتوبة من قبل باحثين أفارقة^(٤).

أيضاً، في دراسة للباحث آيانديلي شملت حوالي (٢٥) ألف مجلة ذات مُعامل تأثير عالٍ في (٢٧) مجالاً في العلوم الاجتماعية والإنسانية، تبين أن مجموع المجلات المنشورة بإفريقيا لم تتجاوز (١٪)^(٥). بل إن هذا المؤشر قد انخفض إلى (٠,٧٪) عام (١٩٩٦م). كما تبين في دراسات عام (٢٠٠٢م) أن إجمالي الإسهام الإفريقي في الكتب المنشورة عالمياً عام (٢٠٠٢م)، وعددها (٩٠٠ ألف)، لم يتجاوز (١,٥٪)^(٦).

هذا، ومن نتائج هيمنة الباحثين غير الأفارقة في ميدان البحث الاجتماعي^(٧):

(٢) Ibid.

(٢) George M. Milliar. (2020). 'Introduction: Methodologies for Researching Africa'. African Affairs, p.1-11.

(٤) Basedau, Op. Cit., p. 197.

(٥) O. Ayandele & T. B. Oriola. "Africa, Knowledge Production and scholarly prestige", in: Nathan A. Decolonizing African Studies, Op. Cit. p.56.

(٦) Manuh T. "Higher Education Condition of Scholars and the Future of Development in Africa", CODESRIA Bulletin, No.3&4, 2002, p.42-48.

(٧) Franklin Obeng-Odoom, 'The intellectual marginalisation of Africa', African Identities, (2019), pp. 1-14, Op. Cit. p.3.

لقد أدى ظهور العلوم الاجتماعية الإفريقية الحديثة في السياق الاستعماري إلى تلبّسها بإشكالات وتحديات بنوية متعددة، حددها الباحث ماتياس باسيديو في أربعة تحديات أساسية، وهي^(١):

١- هيمنة الباحثين غير الأفارقة (الغربيين خاصة) على مجال البحوث المتعلقة بإفريقيا.

٢- الميل نحو وجهات نظر غير متميزة حول إفريقيا، والتركيز عادةً على الجوانب السلبية، وتجاهل التقدم المحرز في العديد من المجالات.

٣- ندرة استخدام المناهج التي تركز على تحديد الأسباب.

٤- التركيز على المنظورات الجزئية، وإغفال الصورة الكلية والأثر طويل الأمد.

التحدي الأول: هيمنة الباحثين غير الأفارقة:

يترجم الباحثون من تهميش علمي ومعرفي ممنهج للباحثين الأفارقة في نشر الأبحاث الخاصة بالقارة، وهو إشكال حقيقي؛ لتدخل معايير غير علمية في إقصاء الجامعات الإفريقية وباحثيها عن منافذ البحث والنشر في مجال الدراسات الإفريقية، وهو ما سبقت الإشارة إليه بالأبارتهد المعرفي.

على سبيل المثال: أسفر تحليل الدراسات المنشورة في ثلاث مجلات رائدة في الدراسات الإفريقية (رقم ١، ٥، ٦ في قائمة المجلات أول هذه الورقة)، في عامي (٢٠١٩-٢٠٢٠م)، أن إجمالي نسبة البحوث التي نشرها باحثون من جامعات إفريقية في تلك المجلات الثلاث، كان

(١) Basedau, "Rethinking African Studies", Op. Cit.

١- التبسيط المفرط للقضايا المدروسة: ويتمثل في اختزال البنى الاجتماعية أو الروحية المعقدة في مفاهيم بدائية، وذلك بغية إفقاد الظواهر الإفريقية سياقها التاريخي، والتقليل من شأنها^(١).

٢- الاستنتاجات النمطية: وهي إصدار أحكام تعميمية تنطلق من تصورات مسبقة، مثل تفسير التحولات الاجتماعية بناءً على قوالب جاهزة كالقبائلية، وليس عبر رصد التطورات الدينامية الحقيقية للمجتمع^(٢).

٣- تهميش الباحثين الأفارقة لصالح الأجانب: وهو احتكار الباحث الأجنبي لمنصات النشر والتمويل، وتقليل دور الباحث الإفريقي إلى «مخبر محلي»، مهمته جمع المادة الخام^(٣).

التحدي الثاني: تقديم تصورات خاطئة عن القارة

تميل الدراسات الاجتماعية حول إفريقيا إلى تقديم تصورات عامة وغير دقيقة، وهي تصورات في الغالب سلبية. ويتمثل هذا التحدي في جانبين اثنين: التعميم الخاطئ، وتجاهل الإنجازات. ففي الجانب الأول يميل الباحثون إلى تعميم نتائج دراساتهم عن مناطق أو دول إفريقية معينة على القارة بأكملها، وهذا يفضي بطبيعته إلى تكريس صور نمطية. أما عن الجانب الآخر، فإن الأبحاث تميل إلى موضوعات نمطية، من أمراض، ونزاعات، وفقر، واستبداد سياسي... على حساب التحولات الإيجابية في الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة.

التحدي الثالث: التركيز على الجزئيات:

نبّه باسيدو على أن من تحديات حقل الدراسات الإفريقية تركيزه على الدراسات المجهرية Micro-perspectives، وإغفال النظر إلى الظواهر الاجتماعية نظرة كلية، ومن مظاهر هذه النظرة الجزئية: هيمنة دراسات الحالة، فقد أظهر تحليل للمجلات الرائدة أن (٨٥٪) منها هي دراسات حالة لدول مفردة. ويلحق بذلك ضعف المقارنة الإقليمية بين مناطق إفريقيا من جانب، وبين إفريقيا ومناطق أخرى من العالم من جانب آخر^(٤).

بالإضافة إلى تلك التحديات الأربعة، فإن ثمة تحديات أخرى كثيرة، يمكن رصدتها حول الدراسات الاجتماعية بإفريقيا، منها على سبيل المثال:

١- هجرة العقول:

إذا كانت هجرة العقول الإفريقية تمثل تحدياً في جميع القطاعات التنموية^(٥)، فإنها تمثل تقويضاً حقيقياً للقدرة البحثية في الجامعات الإفريقية بتجريد مراكز البحث العلمي من أمهر باحثيها، وفي تقويض القدرة البحثية في المؤسسات التعليمية العالية، واستنزاف الرأسمال الفكري للدولة الإفريقية، وتتعدى إلى قطع حبل السرة العلمي بين المهاجرين والفئة الشابة؛ بحرمانها من التعليم والتدريب.

على سبيل المثال: لقد أدت هجرات الأكاديميين في الفترة (١٩٨٤-١٩٩٠م) من القرن الماضي، من غانا إلى دول الغرب والدول الإفريقية الأخرى، إلى تعليق برامج الاقتصاد MSc Economics بالجامعة الوطنية^(٦).

(١) Mudimbe, Op. Cit., p.19.

(٢) Mbembe, Achille. (2001). On the Postcolony. California University Press, p.11.

(٣) Paul Tiyambe Zeleza, The Study of Africa: Volume 1: Disciplinary and Regional Perspectives. p.41.

(٤) Basedau, Op. Cit.

(٥) Mamdani, Mahmood, 'The importance of research in a university' (MISR Working Paper, No.3, 2011), p. 6.

(٦) (S. Agyei, Op. Cit., pp.135-156 (p.144).

ما تحدد للباحثين نماذج بحثية جاهزة، ولا يجد الباحثون بُدّاً من الالتزام بها؛ طمعاً في تأمين التمويل، وهي في الغالب تعكس احتياجات دول الشمال وتوجهاتها أكثر من إفريقيا.

وربما تكون بعض تلك النماذج والموضوعات التي تملئها الجهات الغربية المانحة مضرّة بالمجتمع الإفريقي؛ لما تكتنفها من مبادئ وقيم ورؤى مناقضة لرؤية العالم الإفريقية (حقوق المثليين مثلاً). فالتمويل الخارجي يُمثل - في الغالب - تحدياً في تكريسه لتبعية إفريقيا للقوى الاستعمارية.

٣- تقزيم الباحث الإفريقي:

لقد عمدت الآلة المعرفية الغربية إلى جعل إفريقيا منتجةً للمواد الخام (بيانات) للباحثين الأجانب، ويُعبّر الباحثون عن هذا الوضع بـ: «إمبريالية بيانات» Data Imperialism، ويعنون به اختزال دور الباحث الإفريقي في توفير المواد الخام من البيانات التجريبية، بينما يقوم الباحثون بالغرب بمعالجة تلك البيانات وبناء النظريات، ومن ثمّ تصديرها إلى إفريقيا على أنها اكتشافات وحلول لمشكلات القارة، ومواد لتتميتها^(١). وقد أدى ذلك إلى تفاوت كبير في الإنتاج المعرفي بين إفريقيا والغرب، تماماً كما يحصل في مجال الصناعات الأخرى^(٢). وقد دلت دراسات تيجسن على أن الإسهام الإفريقي في النشر قد هبط من مؤشره العالمي (١٪) عام ١٩٨٧م، إلى (٠,٧٪) عام ١٩٩٦م^(٣). وأكدت دراسات موتون هذا التدني

أيضاً، من الآثار السلبية لهجرة العقول، ضعف التفاعل الأكاديمي بالجامعة الإفريقية؛ إذ لا بد للبيئة البحثية من شريحة نقدية نشطة وفاعلة من الأكاديميين، وهذا نادرٌ في الأوساط العلمية الإفريقية في ظل هجرات العلماء، وتقلص أقسام الكليات، وإثقال كاهل الأساتذة المحاضرين بالساعات التدريسية، والتضخم المفرط في أعداد الطلبة في القاعات الدراسية، ففي تلك الحال، لا مجال للتبادل الفكري والمدارسية بين الباحثين؛ لانشغال كل فرد بنفسه. وقد تُلجئ الأحوال الاقتصادية الباحثين المقيمين إلى الابتعاد عن المنظومة الجامعية؛ لمزاولة أنشطة من أجل البقاء في أعمال قد تكون مرهقةً وبعيدةً عن المجال الأكاديمي، كقيادة سيارات الأجرة «التاكسي»، وأعمال البناء، وتقديم دروسٍ إضافية في المنازل.

٢- التمويل الخارجي المشروط:

نظراً للكثير من أوجه القصور في البنية التحتية للبحوث الاجتماعية بإفريقيا؛ فإن الباحثين لا يستغنون البتة عن الدعم الخارجي من الحكومات والهيئات العالمية الكبرى، مثل: الوكالة الدولية السويدية للتنمية SIDA، والمركز الدولي للدراسات والتنمية IDRC، والوكالة الدولية الكندية للتنمية CIDA، ومؤسسة فورد، وروكفلر، وكارنيجي، وماك آرثر بأمريكا.

لكن الإشكال أن هذا الدعم الخارجي يستجلب تبعات ونتائج سلبية على الإنتاج المعرفي بإفريقيا؛ إذ يُفقد مساحته واسعة من الاستقلالية، ويُخضعه لأجندات البحث التي تملئها الجهات المانحة، وذلك للارتباط الوثيق بين كثيرٍ من تلك الجهات الدولية وبين القوى الاستعمارية التي لا تزال توظف البحوث الاجتماعية أداةً لاستمرار سيطرتها على القارة؛ لذلك، من الطبيعي أن تكون اهتمامات الجهات المانحة والمقاربات الإستيمولوجية التي تميل إليها متجذرة في الفكر الاستعماري، وغالبا

(١) Mahmood Mamdani, 'The importance of re-search in a university' (MISR Working Paper, No. 3, 2011), p. 6

(٢) Obeng-Odoom, Op. Cit., p.7

(٣) Tijssen, R., 'Africa's contribution to the world-wide research literature: New analytical perspectives, trends, and performance indicators', Scientometrics, Vol.71, No.2, (2007), pp.303-

فإن الحكومات المركزية تنظر إلى تلك العلوم بأنها «أكاديمية بحتة» لا تهتد الوضع القائم، بينما تتوجس خيفة من علماء الاجتماع، وترى أنهم مثار اضطرابات وثورات^(٢).

وبما أن الحكومات هي الممول الأساسي للمؤسسات التعليمية؛ فإنها ترى أن يُقابل ذلك التمويل بالولاء المطلق لها، مهما كانت سياساتها جائزة وحائدة عن الصواب. ولا يزال بعض رجال السياسة يرون أن مهمة المؤسسات التعليمية العالية تتلخص في تخريج الموارد البشرية، وتدريب الكوادر للوظائف الإدارية والتكنولوجية المطلوبة للدولة.

وفوق ذلك، فإن بعض الأنظمة الديكتاتورية تتعدى إلى مراقبة الإنتاج المعرفي، ومصادرة البيانات، ومضايقة الباحثين الذين ينتجون أبحاثاً قد تخالف نتائجها الحقائق التي يسعى النظام إلى الترويج لها، وقد يُرغم بعض الباحثين على نشر نتائج مغشوشة، وإحصائيات مغلوطة من أجل إرضاء السلطة.

من هذا المنطلق؛ فإن كثيراً من التحديات التي تواجه الدراسات الاجتماعية يمكن إرجاعها إلى هذه العلاقة المتوترة بين السلطة وبين هذا الحقل العلمي، ففي فترات كثيرة عمدت الحكومات الإفريقية- خاصة الأنظمة العسكرية- إلى إغلاق المؤسسات التربوية أو المراكز البحثية، ومطاردت علماء الاجتماع وحاسبتهم على تهم كبيرة تصل أحياناً إلى الاتهام بالخيانة العظمى، والعمالة مع القوى الأجنبية المعادية.

مما سبق، يتبين أن العلوم الاجتماعية تواجه عوائق جسيمة أبرزها هيمنة الباحثين الغربيين خاصة على البحث الإفريقي، وفرض أجندات

المستمر لمؤشر النشر الإفريقي في المجالات المفهرسة تحت ISI، في العقد الأول من القرن الحالي^(١).

بهذا الصدد، نعى الباحث أوينغ النظرة الدونية إلى الباحث غير الغربي، وسماها «ازدراء المعرفة الواردة من الجنوب» Inferiorization of the knowledge of the South. وذلك حين يُرغم بعض الباحثين على قبول أعمال ثانوية، كأن يكونوا مجرد «جامعي بيانات» أو «مخبرين محليين» data collectors/local informants، أو مساعدين في إجراء بحوث قصيرة الأمد، وكتابة تقارير الأنشطة للمؤسسات الدولية، والمنظمات الخيرية، وهي أعمال لا تضيف شيئاً معتبراً في الحصيلة المعرفية والإجابة عن مشكلات القارة الأساسية، وإنما تخدم في الغالب الحاجات الراهنة للدول الغربية والمنظمات الدولية.

٤- الفصام بين الحكومات الإفريقية وعلماء الاجتماع:

من التحديات التي تواجه العلوم الاجتماعية بإفريقيا توتر علاقات علماء الاجتماع بالسلطة؛ إذ غالباً ما تنظر الحكومات إلى أولئك بعين الريبة والعداء؛ لقيام طبيعة الدراسات الاجتماعية على نقد الهياكل الاجتماعية، ومراقبة آثار السياسات على المجتمع، وتلك إجراءات تراها السلطة السياسية تهديداً مباشراً لها. وكما يقول الباحث Lassiter، فإن التصادم بين علماء الدراسات الاجتماعية والحكومات الإفريقية قد نشأ عن ارتباط هذا العلم الوثيق بالمجتمع، بخلاف بعض التخصصات كالرياضيات والهندسة والفلسفة،

.327

(١) Mouton, J., 2010, 'The state of social science in sub-Saharan Africa', WSSR. Paris: UNE-SCO, pp. 63-67.

(٢) Lassiter, J. E. African culture and personality. African Studies Quarterly, 3(3), (2000), pp. 1-22

الدراسات الإفريقية مسألة حقيقية: هل هي حقاً «إفريقية»؟ ولا غرابة في طرح مثل هذا التساؤل؛ لأن العلوم الاجتماعية، بتعبير الباحث Onwuzu، لا تزال - منذ عصر التنوير - تمد المجتمعات الغربية بالسلطة ومفاتيح الهيمنة على الشعوب الأخرى. وهنا وضع الباحث Aloï ثلاثة أسئلة معيارية لسبر حقيقة الدراسات الإفريقية الأصلية: ماذا، وكيف، ولماذا ندرس القارة الإفريقية؟ وفي هذا الإطار، عرّف الدراسات الإفريقية بأنها: «إنتاج معرفة عابرة للتخصصات، تتعلق بإفريقيا أو بالأفارقة، ويشمل الدراسات التي تتم بواسطة الأفارقة، ومع، ومن أجل، وعن، وفي إفريقيا»^(٣)، فالمحورية الإفريقية ضرورية لفك القبضة الاستعمارية عن الدراسات الاجتماعية بالقارة.

٣- التعددية الكونية:

تميزت الدراسات الاجتماعية الغربية بالطابع الأحادي في الرؤى والمنهجية وأدوات التقييم، أو بتعبير الباحثة Gayathri Spivak: بغف معرفي Epistemic violence؛ وهو الإقصاء الممنهج لعلماء الاجتماع في الجنوب، وإسكاتهم أو تجاهلهم من أجل أن يخلو الجو للأصوات الغربية^(٤). من هنا ترتفع الأصوات الجديدة بالدعوة إلى أن تتعايش تقاليد معرفية متعددة، وأن تتجاوز وتتجاوز فيما بينها محاوراً ندياً، في تعددية جامعة، وليس «عولمة» تفرض رؤى ثقافة معينة على العالم بأسره. عليه؛ نبّه المفكر Mbembe على أن عملية إنهاء الكولونيالية ينبغي أن تستهدف تعددية واسعة سمّاها «عولمية» في مقابل «الكونية» Pluriversity Vs Universality، وتشير إلى قطيعة جذرية مع المنطق الليبرالي الجديد،

إمبريالية على الباحثين الأفارقة عبر برامج تمويل البحوث، وتقزيم الباحث الإفريقي. إن ذلك كله يدعو إلى انتهاج إستراتيجيات راديكالية لتفكيك الاستعمار، وإعادة بناء الحقل المعرفي بإفريقيا من منظور أصيل.

المحور الرابع: الدراسات الإفريقية وإنهاء الاستعمار:

يُعرف إنهاء الاستعمار Decolonization منهجياً في الدراسات الإفريقية بأنه: فعلٌ مستمرٌ وممارسة نشطة للمقاومة، وتفكيكٌ هادفٌ للبنى الفكرية وللمنهجيات التي تشكلت في ظل السيطرة الاستعمارية في الإنتاج المعرفي بإفريقيا^(١).

وتتجلى عملية إنهاء الاستعمار في هذا السياق في عدة إستراتيجيات، منها:

١- البعث الإيستمولوجي الإفريقي:

بما أن الدراسات الغربية حول إفريقيا تقوم على التكرار لنظم المعرفة الأصلية وإقصائها، فإن ذلك ينبغي أن يقابل بوضع الإيستمولوجية الإفريقية في وسط طرق البحث الحديثة، حتى تتطرق من قيمها ومبادئها، وتدور في رحاها. بتعبير آخر، ينبغي أن تتطرق الدراسات الاجتماعية من مركزية المصادر الإفريقية، وإشراك التقاليد الإفريقية في المناهج البحثية، والمناظرات الفكرية، وتلك إجراءات أوسع وأعمق من مجرد إضافة شكلية لبعض المؤلفين الأفارقة إلى المناهج الغربية من أجل إكمال «الديكور». إنه الانطلاق الحقيقي من تقاليد ومناقشات فكرية إفريقية محددة^(٢).

٢- تبشير إفريقيا:

من إستراتيجيات إنهاء الاستعمار مساءلة

(١) Chilisa, B. (2012), Indigenous Research Methodologies, in: Toyin Falola, Decolonizing African Studies, Op. Cit., p. 113

(٢) Alois S. Mlambo, Western Social Sciences Op. Cit., p. 129

(٣) Ibid., p. 272

(٤) Gayatri C. S. (1988). In Other Words. Taylor and Francis, p. 32

والأحادية اللغوية التي تُمثل قاعدة النظام الحالي^(١).

٤- تفعيل التقاليد المعرفية الأصلية:

من ركائز إزالة الاستعمار المعرفي تفعيل التقاليد المعرفية الإفريقية، ويكون ذلك بتشجيع الباحثين على استلهم ركائز معرفية إفريقية أصيلة، مثل أبونتو Ubuntu/Botho، التي تؤكد على الترابط الكوني، وعلى الرفاهية الجماعية والاحترام المتبادل، وتناقش كثيراً من ركائز الفكر الغربي القائم على المثالية الفردية. كذلك يشمل هذا التفعيل وضع التقاليد الشفهية الإفريقية في الوسط الفكري، وجعلها مصادر علمية صلبة، فهي ليست مجرد «حكمة شعبية» كما يُروّج له الآن، وإنما هي مولدات معرفية فعّالة في النظر في الوقائع والظواهر الاجتماعية بالقارة.

٥- الإصلاح الهيكلي والمؤسسي:

لا يتحقق النجاح لأي من الإستراتيجيات السابقة إلا في ظل بيئة نقيّة، فالجامعات المتغربة لا بد من تحويلها إلى «جامعات إفريقية» بحق، ولابد من قطيعة حاسمة مع إبستمولوجيا الرجل الأبيض الميت Epistemology of dead white men، بالتعبير الطريف للباحثين Kennedy, Pett، إشارة إلى المنهجيات الفكرية الغربية القديمة التي لا تزال تهيمن على المنهج التعليمي في كثير من الجامعات الإفريقية، وإلى مؤلفات مفكري الغرب القدماء، وأدباء القرون الوسطى التي لا تزال محور دراسات بعض الباحثين بالجامعات الإفريقية.

خلاصة القول، إن إستراتيجية إنهاء الاستعمار تتمحور حول البعث الإبستمولوجي الإفريقي؛ بجعل القارة مركزاً للدراسة الاجتماعية، لا موضوعاً لها. ويتحقق ذلك بالاعتراف بتعددية كونية، وتفعيل التقاليد المعرفية الإفريقية (أبونتو مثلاً)، وإحداث إصلاحات هيكلية عميقة في بنية الجامعة

الإفريقية.

أخيراً، يمكن القول إن الدراسات الاجتماعية الإفريقية تُعدّ حقلاً متشابكاً مع الإرث الاستعماري الذي يكرّس التبعية الفكرية للغرب، والذي يتجلى في الجامعات والمؤسسات التعليمية بإفريقيا من خلال تبنيها لغات المستعمر، وتهميش المعارف الأصلية، وتحويل الباحثين الأفارقة إلى مجرد جامعي بيانات، فضلاً عن الصدام العنيف بين الحكومات الإفريقية وباحثي علم الاجتماع، ومن ثمّ فإن إزالة تلك الحالة تقتضي إعداد إستراتيجيات تستهدف بعث فلسفة معرفية إفريقية أصيلة.

خاتمة:

تُظهر الدراسة أن العلوم الاجتماعية المرتبطة بإفريقيا لم تتشكل بمعزل عن السياق الاستعماري الغربي، بل نشأت في كثير من مراحلها بوصفها أداة لفهم المجتمعات الإفريقية وإخضاعها ضمن المشروع الكولونيالي. وقد أسهمت المركزية الأوروبية في تكريس صور نمطية عن القارة، وتهميش النظم المعرفية الإفريقية، وإعادة إنتاج التبعية الأكاديمية داخل الجامعات والمؤسسات البحثية الإفريقية.

كما بينت الدراسة أن العلوم الاجتماعية في إفريقيا لا تزال تواجه تحديات بنوية متعددة، مؤكدة أن تجاوز هذه الإشكالات يقتضي تبني مشروع معرفي نقدي يقوم على تفكيك الإرث الاستعماري، وإعادة الاعتبار للإبستمولوجيا الإفريقية والتقاليد المعرفية الأصلية، مع العمل على بناء جامعات إفريقية أكثر استقلالاً وارتباطاً بسياقاتها المحلية ■